شرح الأربعين النووية

الحديث الثالث والثلاثون

لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدعوَاهُمْ

اللقاء السادس والثلاثون

الحديث الثالث والثلاثون:

عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: "لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدعوَاهُمْ لادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَال قَومٍ وَدِمَاءهُمْ، وَلَكِنِ البَينَةُ عَلَى المُدَّعِي، وَاليَمينُ عَلَى مَن أَنكَر" حديث حسن رواه البيهقي هكذا بعضه في الصحيحين.

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس البحر حبر الأمة، وفقيه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله، ابن عم رسول الله -ﷺ-العباس بن عبد المطلب، ولد بشعب بني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين.

ولما توفي الرسول-ﷺ- كان له ثلاث عشرة سنة فقط، ومع ذلك فقد حفظ للمسلمين عن نبيهم ألفا وستمائة وستين حديثا أثبتها البخاري ومسلم في صحيحيهما.

صفاته: وكان جميلاً وسيماً، مديد القامة، مشرباً صفرة صبيح الوجه، له وفرة يخضب بالحناء مهيباً كامل العقل ذكي النفس من رجال الكمال.

انتقل ابن عباس مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح، وقد أسلم قبل ذلك، فإنه صح عنه أنه قال :(كنت أنا وأمي من المستضعفين، أمي من النساء وأنا من الولدان).

وكان ابن عباس منذ طفولته الطاهرة النقية لا يتخلف عن مجلس رسول الله-ﷺ- ولا عن الصلاة خلفه وكان الرسول -ﷺ- يرى في ابن عمه غلاماً نجيباً، عقله أكبر من سنه، ومداركه أوسع من طفولته، فهو لا يكاد يسمع آية من كتاب الله حتى يحفظها عن ظهر قلب، ولا يكاد يسمع حديثاً نبوياً حتى يعيه ويستوعبه، وكان يجالس الكبار ويستمع إليهم، ولذلك فإنه كان يزداد كل يوم علماً وحكمة وفطنة، حتى بلغ مرتبة الفتيا وهو في سن الثامنة عشر من عمره.

يقول رضي الله عنه: (لما توفي رسول الله -ﷺ- قلت لرجل من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله -ﷺ- فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا بن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي -ﷺ- من ترى؟ فترك ذلك. وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفى الريح على التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا بن عم رسول الله! ألا أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسألك. قال: فبقي الرجل حتى رآني وقد اجتمع الناس علي: فقال :(هذا الفتى أعقل مني).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله. وما كان يدعو أحدا سواه وذلك لحذقه واجتهاده.

وقال ابن عباس: كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم، قال: فذكر أنه سألهم وسأله فأجابه، فقال لهم: كيف تلومونني عليه بعد ما ترون.

وكل هذا من بركة دعاء النبي -ﷺ-، عن ابن عباس أن النبي -ﷺ- دخل الخلاء، فوضعتُ له وضوءًا، قال: "من وضع هذا؟"، فأُخْبِر، فقال: "اللهمَّ فقِّههُ في الدِّين". متفق عليه

وقال مجاهدا:(كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه)! وكان عطاء يقول: (قال البحر وفعل البحر).

يقول مسروق: (كنت إذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس، فإذا تحدث قلت أعلم الناس، فإذا نطق قلت أفصح الناس).

يقول عمر بن الخطاب:(ابن عباس فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول).

بعض مقولات ابن عباس:

- لو أن العلماء أخذوا العلم بحقه لأحبهم الله عز وجل والملائكة والصالحون من عباده ولهابهم الناس لفضل العلم وشرفه.
- من حلم ساد ومن تفهم ازداد.
- إياك والكلام فيما يعنيك إذا كان في غير موضعه، ولا تمار سفيها ولا حليما، فان السفيه يؤذيك وإن الحليم يقليك، واذكر أخاك في غيبته بما تحب أن يذكرك به، ودعه مما تحب أن يدعك منه.
- لجليسي عندي ثلاث إذا أقبل رحبت به، وإذا قعد أوسعت له، وإذا تحدث أنصت لحديثه واستمعت منه.

وكان يفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات.

وفاته: عاش ابن عباس، داعياً لله يشرح تعاليم الإسلام، وكف بصره في أواخر حياته، هو القائل إن يَأْخُذِ اللهُ مِن عَينَيَّ نورَهُما فَفي لِساني وَقَلبي مِنهُما نورُ، قَلبٌ ذَكِيٌّ وَعَقلٌ غَيرُ ذي دَخَلِ

وَفي فَمي صارِمٌ كَالسَيفِ مَأثورُ.

❍وفي سنة 68هـ توفي ابن عباس البحر، وكان عمره ، وكان مرضه ثمانية أيام.

آية عند الممات: عن سعيد بن جبير، قال: مات ابن عباس بالطائف فشهدنا جنازته، فجاء طائر لم ير على خلقته حتى دخل في نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية لم يدر من تلاها:(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي).

منزلة الحديث:

هذا الحديث من أجلِّ الأحاديث وأرفعها، وأقوى الحجج وأنفعها، وقاعدة عظيمة من قواعد الشريعة المطهرة، وأصل من أصول أحكام الإسلام المحررة، وأعظم مرجع عند الخصام، وأكرم مستمسَك لقضاء الإسلام، وقيل: إنه فصل الخطاب الذي أوتيه داود عليه السلام [الفتوحات الربانية].

قال النووي رحمه الله: وهذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع، ففيه أنه لا يُقبَل قول إنسان فيما يدعيه بمجرد دعواه، بل يحتاج إلى بينة، أو تصديق المدَّعَى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه فله ذلك [شرح مسلم للنووي].

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام، وأعظم مرجع عند التنازع والخصام، ويقتضي ألا يحكم لأحد بدعواه [شرح الأربعين لابن دقيق العيد].

هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين الذي يبني أحكامه على الحقائق، وإذا فقد الدليل فلا بد من اليمين، وهو فصل الخطاب[الإلمام].

شرح الحديث:

((لَوْ يُعْطَى الناسُ))؛ أي: الأموال والدماء، ((بِدَعْوَاهُمْ))؛ أي: لو كان من ادعى شيئًا عند الحاكم يعطاه بمجرد دعواه بلا بينة ((لادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قومٍ ودِماءَهُمْ))، وذكر الرجال لا لإخراج النساء، بل لأن الدعوى غالبًا إنما تصدر منهم.

((ولَكِنَّ البَيِّنَةَ على المُدَّعِي)) إنما كانت البينة على المدعِي؛ لأنه يدعي خلاف الظاهر، والأصل براءة الذمة، وإنما كانت اليمين في جانب المدعَى عليه؛ لأنه يدعي ما وافق الأصل، وهو براءة الذمة.

((واليَمِينَ على مَنْ أنْكَرَ))؛ أي: مَن أنكر دعوى خصمه إذا لم يكن لخصمه بينة، فإذا قال زيدٌ لعمر: أنا أطلبك مائة درهم، وقال عمر: لا، قلنا لزيد: ائتِ ببينة، فإن لم يأتِ بالبينة، قلنا لعمر: احلف على نفي ما ادعاه، فإذا حلف برئ.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: "هذا الحديث عظيم القدر، وهو أصل من أصول القضايا والأحكام، فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع، هذا يدعي على هذا حقًّا من الحقوق فينكره، وهذا يدعي براءته من الحق الذي كان ثابتًا عليه، فبيَّن -ﷺ- أصلًا بفض نزاعهم، ويتضح به المحق من المبطل، فمن ادعى عينًا من الأعيان، أو دينًا، أو حقًّا من الحقوق وتوابعها على غيره، وأنكره ذلك الغير، فالأصل مع المنكر. فهذا المدعي إن أتى ببينة تُثبت ذلك الحق، ثبت له، وحُكمَ له به، وإن لم يأت ببينة، فليس له على الآخر إلا اليمين".

قال ابن جبرين في كتاب شرح عمدة الأحكام: ويعتبر هذا الحديث من جوامع الكلم حيث إنه بيّن كيف يقضي القاضي؛ وذلك لأنه كثرت الدعاوي، فيوجد من يدعي وهو كاذب ظلماً وبهتاناً، فلو أعطي بدعواه لادعى أن هذا قتل أباه، ويريد قتله، أو أن هذا انتهب ماله، أو أن هذا ظلمه، أو أن هذا ضربه وهو كاذب؛ حتى يحصل على مالٍ أو يحصل على ديةٍ أو يحصل على شفاء نفسه؛ فيكثر الظلم، ويعطى من لا يستحق غير ما يستحق.

بين -ﷺ- أن على المدعى عليه اليمين: (اليمين على المدعى عليه) ، والمدعى عليه هو الذي إذا ترك سكت، وهو الذي يحب أنه يخلى سبيله، جاءه إنسان وقال: أنت يا هذا عندك لي حق، عندك لي دين، أو ظلمتني، أو أخذت مالي، أو اقتطعت أرضي، أو سفكت دمي، أو قطعت طرفي، أو قتلت ابني، أو هدمت جداري، أو قلعت شجرتي، أو صدمت سيارتي، أو نحو ذلك؛ فأنكر، وقال: ليس هو أنا، ما فعلت شيئاً من ذلك، لست أنا خصمك، وليس عندي لك حق، فالمدعي المطالب هو المبتدئ، والمدعى عليه يريد الهروب، ويريد السلامة، ينكر ذلك، وينكر أن يكون عنده شيء، ويحب أن يترك ويخلى سبيله، فلما كان جانبه أقوى -لأن الأصل البراءة- جعلت اليمين عليه، فإن اليمين تكون مع من جانبه أقوى، فيقال له: إما أن تثبت ببينة وشاهدي عدل أن هذا ظلمك وأخذ حقك وإما أن يحلف خصمك، وتبرأ منه، وقد وقع ذلك في حديث الأشعث بن قيس الكندي لما تخاصم هو ورجل من كندة في أرض، فقال: إنه اعتدى على أرضي، فقال الكندي الآخر: إنها أرضي ورثتها من أبي، فقال النبي -ﷺ- للأشعث: (ألك بينة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه، فقال: إذاً يحلف ويأخذ أرضي)، وفي رواية قال: (إنه رجل فاجر لا يبالي بالكذب، فقال: ليس لك إلا يمينه) ، ثم إنه عليه السلام أخبر بشدة عذاب من حلف كاذباً، فقال: (من حلف علَى يمينِ صبْرٍ يَقْتَطِعُ بها مالَ امرئٍ مسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو عليه

غضبانٌ عفَا عنْهُ أوْ عاقَبَهُ) ، ونزلت في ذلك الآية الكريمة في سورة آل عمران: (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً) [آل عمران:77] يعني: حظاً دنيوياً عاجلاً (أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [آل عمران:77] انظروا كيف توعد الله من حلف وهو كاذب، فعلى الشاهد أن يتثبت في شهادته، والحالف لا بد أن يتثبت في حلفه، مخافة أن يأخذ بيمينه ما لا يحل له، ومخافة أن تنزل به عقوبة إذا حلف وهو كاذب، وبالأخص إذا حلف على أمر ماضٍ وهو يعلم أنه كاذب فيه، وهذه تسمى اليمين الغموس، فإنه يوشك أن يعاقبه الله عاجلاً، وقد ورد في بعض الآثار: (إن اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع) يعني: من حلفوا وهم كاذبون يسلط الله عليهم الآفات والمصائب والموت، ذكر ابن عباس أن رجلاً من قريش في الجاهلية قتله رجل من العرب، فطلبوا ديته فقالوا: ما قتلناه، فقالوا: يحلف منكم خمسون، فأحد الخمسين دفع ناقتين وقال: اعفوني من اليمين، والثاني من الخمسين أعفوه لأنه صهر لقريش، وثمانية وأربعون حلفوا وقالوا: ما قتلناه، فما دارت السنة وفيهم عين تطرف، هكذا في صحيح البخاري عن ابن عباس، فلذلك يتوقى من الحلف كاذباً كما يتوقى من الشهادة كاذباً. كتاب شرح عمدة الأحكام لابن جبرين

ومن أشد أنواع الأيمان الكاذبة اليمين الغموس، وهي التي تغمس صاحبها في الإثم ومن ثم في النار.

قال -ﷺ-: "مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ له النَّارَ، وَحَرَّمَ عليه الجَنَّةَ فَقالَ له رَجُلٌ: وإِنْ كانَ شيئًا يَسِيرًا يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: وإِنْ قَضِيبًا مِن أَرَاكٍ" صحيح مسلم.

وقال-ﷺ-: "مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

وروى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، أن أعرابيًا جَاءَ إِلَى النَّبِي -ﷺ-، فَقَالَ: يَا رَسولَ الله: مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: "الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "ثُم عُقُوق الوَالِدين"، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: "الْيَمِينُ الْغَمُوسُ"، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: "الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ".

جاء في فتوى اللجنة الدائمة: "اليمين الغموس من كبائر الذنوب، ولا تجدي فيها الكفارة لعظيم إثمها، ولا تجب فيها الكفارة على الصحيح من قولي العلماء، وإنما تجب فيها التوبة والاستغفار".

ومن القصص التي تُذكر في هذا الشأن ما حدث بها أحد المشايخ الثقاة نقلًا عن أحد القضاة، يقول: تخاصم لدي رجلان كبيران في السن، تنازعا وليس لأحدهما بينة، فقلت للمُدعى عليه: هل تحلف أن هذا المال هو مالك؟ فقال: نعم، فذكرته بالله وأن اليمين الغموس أمرها عظيم، فأصر على موقفه، ثم حلف على ذلك، قال القاضي: وأنهيت الجلسة ثم خرجا، أما المُدعى عليه فإنه لما فتح الباب ليخرج سقط عند الباب فأسرعنا إليه، وإذا به قد فارق الحياة.

أما القصة الثانية: فحدث بها أحد المشايخ نقلًا عن أحد موظفي المحكمة في مدينة من المدن، يقول: جاء رجل كبير في السن يشتكي إلى القاضي رجلًا آخر أخذ منه مالًا، فقال له القاضي: هل لديك بينة؟ فقال: لا، فقال: إذًا يحلف المدعى عليه، فحلف المُدعى عليه ثم خرج من المحكمة، فجعل المدعي كبير السن يدعو عليه دعاءً عظيمًا يهز الجبال من شدته، فما هي إلا أيامًا معدودة لم تتجاوز العشرة أيام إلا ويحصل حادث للمُدعى عليه فيموت من ساعته.

لقد تساهل كثير من الناس بأيمانهم، وأصبح البعض يحلف بالله في كثير من أحاديثه وأقواله، وفي بيعه وشرائه، وفي كل أمر يَعِدُ به غيره؛ فتراه يحلف بالله على أتفه الأسباب بلا سبب يقتضيه، ومن الناس من لا يصدق غيره إلا إذا حلف له يمينًا مغلظًا.

لقد أمرنا الرب -جل وعلا- أن نحفظ أيماننا؛ تعظيمًا لاسمه -جل وعلا-، ولا نكثر من الحلف إلا عند الحاجة الملِّحة فقال -تعالى-: (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)[المائدة:89]، بل أمرنا -تبارك وتعالى- أن لا نُطيع من يُكثر الحلف فقال -تعالى-: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ)[القلم:10].

إن شأن اليمين عند الله عظيم، والتساهل بها أمر جسيم؛ فليست اليمين مجرد كلمة تمر على اللسان، ولكنها عهد وميثاق سيُسأل عنه العبد يوم القيامة.

إن من أجدر ما يربي به العبد نفسه وغيره سيرته -ﷺ-، ففيها معالم عظيمة يهتدي بها المربون، تربية أنفسنا وغيرنا، في تعاملاتنا وعلاقاتنا وسائر أحوالنا؛ حتى نكون على مستوى أدب هذا الدين الذي بعث به رسول الله -ﷺ- ليزكينا من كل المساوئ والمنكرات.

وقضية الأدب والخلق قضية عظيمة في هذا الدين، حتى إن الرسول -ﷺ- يقول: " إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ " السلسلة الصحيحة، ولذا كان السابقون من السلف الصالح يحرصون أشد الحرص على تأديب أنفسهم بأدب الإسلام في كل شيء، وكانوا يقدمون الأدب قبل العلم؛ قال ابن المبارك -رحمه الله-: تعلمت الأدب ثلاثين سنة، وتعلمت العلم عشرين سنة.

وقال ابن سيرين –رحمه الله–: كانوا –أي الصحابة رضوان الله عليهم– يتعلمون الهدي –أي السيرة والهيئة والطريقة– كما يتعلمون العلم.

وقال حبيب ابن الشهيد الفقيه لابنه: يا بني: اصحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم، فإن ذلك أحب إليّ من كثير من الحديث.

وقال بعضهم لابنه: يا بني: لأن تتعلم بابًا من الأدب أحب إليّ من أن تتعلم سبعين بابًا من أبواب العلم.

وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك: نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث. يقول ذلك في القرون المفضلة، فكيف لو رأى سوء الأدب في هذا الزمان؟!

وقيل للشافعي –رحمه الله–: كيف شهوتك للأدب؟! فقال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعًا فتنعم به. قيل: وكيف طلبك له؟! قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره. وقال –رحمه الله–: ليس العلم بما حُفظ، العلم ما نفع.

من أعظم المواقف التربوية العظيمة في حياة النبي –ﷺ– ما رواه أبو داود وأحمد: أن النبي –ﷺ– ابتاع فرسًا من أعرابي، فاستتبعه النبي –ﷺ– ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي –ﷺ– وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي –ﷺ– ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي –ﷺ–، فنادى الأعرابي النبي –ﷺ– فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقام النبي –ﷺ– حين سمع نداء الأعرابي، قال: "أوليس قد ابتعته منك؟"، قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبي –ﷺ–: "بل قد ابتعته منك"، فطفق الناس يلوذون بالنبي –ﷺ– والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدًا يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك، إن النبي –ﷺ– لم يكن يقول إلا حقًّا، حتى جاء خزيمة، فاستمع لمراجعة النبي –ﷺ– ومراجعة الأعرابي، يقول: هلمّ شهيدًا يشهد أني بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي –ﷺ– على خزيمة فقال: "بم تشهد؟!"، فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله –ﷺ– شهادة خزيمة بشهادة رجلين.

فلو فقهنا هذا الحديث العظيم وهذا الخلق والأدب الجم من رسول الله –ﷺ– لعرف كل منا ما له وما عليه، ففي هذه الأيام كل منا اعتقد في نفسه فضلاً أو شرفًا أو علمًا، والكل –إلا من رحم الله– مع الأسف يعتقد في نفسه ذلك، أقول: من اعتقد في نفسه شيئًا من ذلك أحب أن يحصل

على حقوقه هكذا دون بينة، ويستكبر أن يُطلب منه دليلٌ على ما يقول؛ لأنه المعصوم المقدس، ويستنكف أن يعترض أحد كما اعترض ذلك الأعرابي النبي -ﷺ-، ما أصبر رسول الله -ﷺ- وما أحلمه وذلك الأعرابي يتجاهل البيع الذي تم!! ويهدد رسول الله -ﷺ- إن يدفع الثمن الأكثر وإلا لم يبع له، ورسول الله -ﷺ- يقول: "أوليس قد ابتعته منك؟!"، والأعرابي الكاذب يحلف أن لا، ورسول الله -ﷺ- لا يسبه ولا يردد أكثر من قوله: "بل قد ابتعته منك". نعم، فما كان ليأخذ الفرس ويمضي البيع بسلطانه، فكيف وهو يقول للناس: "لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى رجال أموال قوم ودماءهم"، لكن البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، وكون رسول الله -ﷺ- صادقًا في حقيقة الأمر، إلا أنه والجميع مقيدون بأحكام الشرع، والناس لهم الظاهر، ورسول الله -ﷺ- مطالب بالبينة على ما يقول، فما أحلمه -ﷺ- وما أوسع صدره!! لم يكن جبّارًا -ﷺ- ولا متكبرًا ولا مغرورًا. ما أصبره على هذا الأعرابي! وما أعظم امتثاله وتقيده كغيره بأحكام الشرع وحدوده عند المنازعة على شيء.

الالتزام بتعاليم الكتاب والسنة، هو سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم، من غير ميل عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعلَ الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها، الظاهرة والباطنة...أما تقسيم الدين حسب الأهواء والمصالح فهذا هو حال الضالين المضلين.

بالصدق يتميز أهل الإيمان من أهل النفاق، الصدق روح الأعمال، ومحك الأحوال، ومقياس التقوى، ودليل المروءة، وبريد العزة، ومضفي الهيبة؛ وهو طريق السعادة، ومجلبة البركة، ورافع الدرجة، ومورث الطمأنينة.

ما أمس حاجتنا إلى عودة صادقة إلى رحاب الصدق! وتزوُّدٍ من مَعِينه، وتطيُّب بطِيبه، وتزين بجماله، خصوصاً في زمن كثر فيه الكذب، وتلاشى الصدق، وامتهن الخداع، وساد المكر، وطغت المراوغة، واستسيغ الغش، وأرعد النفاق، وأزبد الباطل، حتى أصبح الصدق وأهله كالنجوم القليلة في الليل الحالك، والمصابيح الصغيرة في الظلام الدامس.

وإن للباطل انتفاشا، وللكذب بريقا، وللخداع صولات، ولكنه سرعان ما يتلاشى، ولا يلبث أن يتهدم، ولا يبقى إلا الصدق، ولا يسود إلا الحق: (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء:81].

بعض الناس يسأل بالله -عز وجل-: أسألك بالله أأنت فعلت كذا؟! فيحلف بالله كاذبا، يحلف بالله زورا، ويحلف بالله أنه لصادق، وهو كاذب، الله يغضب عليه ويكتب عنده كذابًا أو من

الكذابين، أيسر هذا الذي يكذب ويحلف بالله –عز وجل– كذبًا وزورًا، أن يلقى الله وهو على هذا الحال.... إذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجى.

إن الصدق لا يزال يترقَّى بصاحبه حتى يرفعَ منازلَه في الدنيا ثم في الآخرة بأن يلبسه أعظم تاج وأحسنه بأن يكتب عند الله صِدِّيقاً، إنها بشرى للصادق بأن يُحَدِّدَ موقعه من الآن، ويحجز مكانه مع الصدِّيقين، في مقعد الصدق.

في ذلك اليوم يوم تقف الأجساد عارية، والأقدام حافية والرؤوس كاشفة، والشمس مدنية من رءوس الخلائق، عرق يتصبب، عيون تلتفت هنا وهناك، ذعر في القلوب من شدة ذلك اليوم وهوله، وما يكون فيه تصعد القلوب إلى الحناجر فيحصل الكظم والخنق في ذلك اليوم لا ينفع ذلك اليوم إلا الصادق، (قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)، فلا ينفع ذلك اليوم إلا من كان صادقا مع الله في الدنيا فينجيه بفضل الله –عز وجل– صدقه يوم القيامة.

ونسأل الله تعالى ألَّا يجعل لنا عند أحد من المسلمين مظلمة، وأن يجعلنا من أوليائه وأحبابه الذين ينفعون إخوانهم المسلمين، وأن يتوفانا وهو راض عنا غير غضبان.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع:

❶من معالم التربية النبوية: هشام عبد القادر آل عقدة.

❷كتاب شرح عمدة الأحكام لابن جبرين.